اجهاضها.

في العام ١٩٧٢، شعرنا بأن الظروف قد اصبحت مؤاتية، خاصة وان السؤال الذي كان مطروحاً علينا سابقاً حول ضرورة ابناء البلد، في حال وجود الحزب الشيوعي الاسرائيلي، قد اصبحت الاجابة عنه واضحة؛ وبدا واضحاً الفرق بين احتياجاتنا واهتمامات الحزب الشيوعي. السبب الآخر، والاساسي، الذي ساهم في ظهور حركة ابناء البلد هو الوضع الاجتماعي ـ الاقتصادي الذي كان سائداً في قرانا العربية، وخصوصاً في ام الفحم. انني عندما اتكلم عن ام الفحم، اتحدث عنها كنموذج مصغر لاوضاع القرية الفلسطينية في مناطق ١٩٤٨، وليس بسبب ارتباط عاطفي او محلي بهذه البلدة. النظام العائلي القبلي الذي كان سائداً ومسيطراً، الى حد كبير، في ام الفحم، وغيرها من القرى، يحمل مضامين رجعية، وقد دعم بقوة من قبل السلطات، وخصوصاً من قبل حزب العمل، والمفدال، وكلاهما من ابرز من عمل على اذكاء وتعزيز النظام الحمائلي والعشائري القبلي في القرى العربية. فالمفدال، مثلاً، استغل وزارتين لتجنيد العملاء، هما وزارة الشؤون الاجتماعية ووزارة الداخلية المعنية بشؤون الهويات وقضايا المواطن اليومية. في الجهة الاخرى، كان حزب العمل ينشط في هذا المجال ويستغل قضايا العرب اليومية المرتبطة به لتجنيد الكثيرين في صفوفه.

اما جهاز المخابرات، الذي نما وترسخ في ظل المعراخ، فقد اخذ دور الحكم العسكري تجاه الجماهير العربية بدون منازع، وذلك بعد انتهاء فترة الحكم العسكري الذي كان مفروضاً على العرب. واصبحت قوانين الطوارىء الانتدابية في يد اجهزة المخابرات لتطبيقها علينا، بعد ان كانت هذه القوانين في يد الحكم العسكري. وللمخابرات اذرع طويلة في وزارة المعارف، وخصوصاً في ما يتعلق بالشؤون العربية. عملياً، ساهم حزب العمل في تغذية المخاتير وزعماء الحمائل لاهداف امنية وانتخابية. والتعبير عن هذه الظواهر القبلية المختلفة كان يبدو جلياً في فترات الانتخابات، حيث كانت القوائم تشكل على اساس عائلي، والعائلات الصغيرة كانت تتحالف مع بعضها البعض حتى تجد لها مكاناً لهذه الغاية الانتخابية.

اما نحن، كشبان، فقد كنا ندرك انه لا يمكن ان نتقدم ونطور مناطقنا، كمجتمع، وطني في ظل هذه الظروف القبلية. لذلك، وجدنا انه لا بد من اختراقها من كل الجهات، وبجميع الوسائل المتوفرة، وهذا لن يتم الاّ من خلال بناء تنظيم ثابت وراسخ، وعلى اسس وطنية وثقافية للنهوض بمجتمعنا، اجتماعياً وسياسياً.

ان طبيعة مجتمعنا العربي في اسرائيل قد ساهمت في ظهورنا، فالغالبية العظمى فيه هي من الفلاحين الفقراء الذين تحولوا، في سياق عملية مصادرة الاراضي، الى عمال يعملون بأجر محدود خارج اراضيهم وقراهم، وفي اعمال شاقة وظروف قاسية وخطرة، كالبناء، والنظافة، والخدمات الاخرى؛ وبذلك نشأت طبقة عاملة عربية لها سماتها الخاصة؛ فهي ليست طبقة عاملة بالمفهوم الكلاسيكي، اي انها ليست بروليتارية كما يعني هذا المصطلح، واعمالها لا تتركز في الصناعة المتطورة، انها تعمل باجر محدود، وفي اعمال سوداء. وهكذا، بدأت تنشأ، لدى المجموعات العربية، هموم مشتركة، ومصالح مشتركة، يجب الدفاع عنها، لان الاطر العائلية والحمائلية عاجزة عن القيام بذلك. من هنا جئنا، كحركة ابناء البلد، تعبيراً عن ذلك، وخضنا، في هذا المجال، صراعاً اتخذ اشكالاً متعددة واحياناً عنيفة.

انا، مثلاً، تمردت على عائلة فاشية متعاونة مع السلطة، وهذا الامر كان يهدد كل فرد شخصياً بمحاولة نبذه اجتماعياً، والتضييق على مصالحه، وسد سبل العمل في وجهه او عرقلة تعليمه؛ واحياناً كانت الامور تصل الى درجة التهديد بالقتل. محمد سلامة، مثلاً، اطلق الرصاص باتجاه مكان عمله في العام ١٩٧٨، وذلك في اطار الارهاب المباشر. وفي تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٨٣، وضعت متفجرة تحت سيارتي. وفترة السجن الاولى التي امضيتها كانت مدبرة من قبل بعض اقاربي الذين عبروا عن ذلك صراحة بقولهم لي: «اذا ابتعدت من هذه الطريق، فنحن كفيلين بتوظيفك في احسن المراكز». كل هذه نماذج لمعاركنا التي لم تحسم نهائياً حتى الآن مع القوى العائلية.

ان الوضع الذي اوجد ضرورة قيام حركة ابناء البلد ما زال قائماً ومستمراً. وجماهيرنا في الداخل اصبحت تدرك انه لم يعد لها مفر من الاستمرار في النضال، وبكافة السبل، لخلق ظروف حياتية